الفصل الأول

- **مأساة اللاجئين الفلسطينيين : نشأتها وأسبابها**

قبل الخوض فى موضوع استعراض أحوال اللاجئين الفلسطينيين الحاضرين وإعطاء صورة حقيقية عن حياتهم القاسية فى هجرتهم من وطنهم ، وفى مساكنهم الراهنة فى الخيام المهلهلة والكهوف الباردة . وعن طفولة أبنائهم البائسة وحياتهم المشردة . تري أن نستعرض أولاً تاريخ هذه المشكلة وكيفية نشأتها وأسبابها والعوامل التى أدت إلى وقوعها .

ولا نزاع فى أن إجلاء الفلسطينيين عن ديارهم ، وطردهم من دورهم فى مدنهم وقراهم، يرجع إلى تنفيذ خطة مدبرة ، ولم ينجم عن الأحداث الدامية التى وقعت فى فلسطين عقب إعلان قرار التقسيم فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ فحسب وإن كانت ظروف عام ١٩٤٨ قد جاء مواتية لتحقيق تنفيذ هذه الخطة[١] .

فمنذ أن أعلن قيام الحركة الصهيونية أوضح زعماؤها فى تصريحاتهم مثل أيدو وجاكبسون وتشيلوف ولاندو وسيملانسكى «أن فلسطين يجب أن تكون وطناً للشعب اليهودى ، وأن بالإمكان نقل أهل فلسطين العرب إلى الأقطار العربية المجاورة لأنها بلاد واسعة وقليلة السكان » .

(١) سجل النكبة ١٩٤٨ د. سليمان أبو ستة .

وقد دعا هرتسل واضع فكرة الدولة اليهودية إلى عقد المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧ ليحقق هذه الفكرة . وقد جاء فى البند الثانى من قرارات هذا المؤتمر : «أن تكون مساحة البلاد كافية لحاجات خمسة عشر مليونا من اليهود» .

ومن نحو نصف قرن أعلن إسرائيل زانكويل الزعيم الصهيونى ومؤسس المنظمة الصهيونية للاستعمار والأراضى «أن فلسطين وطن بلا شعب فيجب أن يعطى لشعب بلا وطن ، وأن من واجب اليهود فى المستقبل أن يضيقوا الخناق على سكان فلسطين العرب حتى يضطروهم إلى الخروج منها .

وفى خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ اتصل زعماء الحركة الصهيونية بالحكومة البريطانية وحليفاتها لإصدار تصريح من الحلفاء يقضى بجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود . وكان الرئيس ولسون من الذين اتصل بهم هؤلاء الزعماء . وأعلن القاضى براندليس اليهودى ، وكان عضوا فى المحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكية ومستشارا للرئيس ولسون ، « أن المقصد من طلب اليهود تسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين هو أن يصبح اليهود أكثرية السكان فى فلسطين ، وأن على العرب أن يرحلوا منها إلى الصحراء .

وعلى أثر احتلال بريطانيا لفلسطين وفرض الانتداب البريطانى عليها أعلن زعماء الصهيونية ومنهم سوكولوف ووايزمن وايدر وبن زفى وكيش وساكر وغيرهم «أنهم يريدون أن تصبح فلسطين بأجمعها لليهود ، وأن تكون يهودية كما أن انجلترا انجليزية .

ويؤخذ مما ذكره الدكتور وايزمن فى مذكراته من أنه «اتفق مع الحكومة البريطانية التى تبنت الحركة الصهيونية على تسليم فلسطين لليهود خالية من سكانها العرب» ومن أنه «كان مقدرا لذلك الاتفاق على أن يتحقق فى عام ١٩٣٤ لولا أن الثورات التى قام بها عرب فلسطين عاقت ذلك» .

وجاء فى خطاب الزعيم الصهيونى فلاديمير جابوتنسكى «أننا سنطرد العرب من فلسطين وشرق الأردن ، وسنقذف بهم فى الصحراء العربية ، وسنقيم الدولة اليهودية على ضفتى الأردن » .

وعقب إعلان وعد بلفور فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٧ واحتلال الإنجليز لفلسطين، وجدت الصهيونية أن عقبات تقوم أمامها ولا سبيل إلى تحقيق أهدافها فى الغزو قبل تذليل هذه العقبات ، ومنها أن اليهود لم يكونوا يؤلفون أكثر من ٦ ٪ من مجموع السكان . وكانوا لا يملكون أكثر من ٤٠٠ ألف دونم من الأرض (الدونم ألف متر مربع) . لذلك عملت الوكالة اليهودية

بالتعاون مع الدولة المنتدبة على جعل فلسطين فى ظروف سياسية وإدارية واقتصادية واجتماعية تمكن من الاستيلاء على الأراضى العربية ، وعلى إجلاء أهل البلاد من العرب . وفتحت أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مصراعيها ، وسمح لليهود بامتلاك الأراضى وسنت القوانين المجحفة بالعرب والتى تيسر الاستحواذ على الأراضى العربية ، ورخص لليهود بتشكيل منظمات «المكابى» و «الطلائع» و «الترمبلدور» و «شباب إسرائيل» و «أبناء صهيون» وغيرها من المنظمات التى عملت على تسليح الشباب اليهودى وتدريبه ، كما سمح للجنود المسرحين الذين خدموا فى الجيش البريطانى بالإقامة فى فلسطين والاحتفاظ بأسلحتهم وتأليف جمعية المحاربين القدماء .

وكان من نتيجة ما اتخذ من وسائل الضغط تم الاستيلاء على قرى عربية بأكملها ، وفرض العقوبات على قاطنيها . وما أنزل من مظالم ومغارم بالعرب فى سبيل تحقيق أهداف الصهيونية ، أن أخرج المالكون والمزارعون العرب بالقوة من ٢٢ قرية من قرى مرج ابن عامر كانت تقطنها ٢٧٤٦ عائلة عربية وأخرج ١٥,٥٠٠ عربى من أراضى وادى الحوارث و ١٥,٠٠٠ عربى آخر من أراضى الحولة ، كما أخر كثيرون غيرهم من أراضى الساحة

وطبعون والزبيدات وغيرها ودمرت بيروتهم وقراهم تدميرا كاملا ومحيت من الوجود .

وكان أن بلغت مساحة الأراضى التى امتلكها اليهود حتى عام ١٩٣٠ ١,١٧٠,٠٠٠ دونم كما أثبت ذلك المستر فرنش الذى أولدته الحكومة البريطانية آنذاك لدراسة مشكلة الأراضى . وجاء فى الكتاب الأبيض الذى أصدرته هذه الحكومة عام ١٩٣٠ وعرف «بكتاب باسفيلد» وزير المستعمرات فى حكومة رامزى مكدونالد «بأن ٣٠٪ من العائلات العربية فى القرى قد أصبحت بلا أرض فشجع كل ذلك اليهود على الاسترسال فى الافصاح عن نواياهم العدوانية والجهر بمآربهم وأطماعهم .

وقد نشر الكاتب اليهودى المعروف بن آفى فى صحيفة «دوارهايوم» العبرية عدة مقالات تعليقا على الشهادات التى ذكرت أمام لجنة هيكرافت المنتدبة من قبل الحكومة البريطانية للتحقيق فى أسباب الحوادث الدامية التى وقعت بين العرب واليهود فى مدينة يافا ومنطقتها فى شهر مايو عام ١٩٢١ «أن على اليهود أن يطهروا وطنهم فلسطين من المغتصبين ، وأن على سكان فلسطين المسلمين أن يرحلوا إلى الحجاز والصحراء ، وأن على سكانها المسيحيين أن يجلوا عنها إلى لبنان » .

ونحت صحف «ها آرتز» و «دافار» و «البوست» وغيرها من الصحف العبرية هذا المنحى فى معالجتها لقضية فلسطين .

موجة العدوان :

وجاءت الحرب العالمية الثانية ووجد الصهيونيون الفرصة ملائمة لهم فشنوا حملة إرهابية منظمة ليرغموا السلطات البريطانية على الإسراع فى تنفيذ البرنامج الصهيونى ومغادرة فلسطين ، ومنها حادث إغتيال اللورد موين الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط فى القاهرة عام ١٩٤٤ ، وأعقب ذلك محاولة إغتيال المندوب السامى البريطانى لفلسطين السير هارولدما كمايكل عام ١٩٤٤ بالقرب من قرية قالونية (طريق القدس – يافا) ونسف مكاتب السلطات البريطانية أثناء ساعات العمل فى يوليو سنة ١٩٤٦ التى كانت تؤلف جناحا فى فندق الملك داود وقد ذهب ضحية هذا الحادث حوالى مائة شخص . ثم قتل وجلد عشرات من الجنود وضباط البوليس البريطانيين وشنق بعض الشباب الإنجليز .

ثم كان أن أعلنت بريطانيا إنهاء الانتداب على فلسطين ، ووضحت نوايا الدول الكبرى فى إقامة دولة يهودية فيها . ثم جاء قرار التقسيم الذى يقضى بقيام هذه الدولة ، ، وبدأ اليهود يعالجون المشكلة الكبرى التى تواجههم ، مشكلة العرب الذين شملتهم

سيادة الدولة اليهودية ، ورأوا أنه لابد من تشريد منظم ينزح فيه الشعب العربى نزوحا جماعيا .

ولسنا بحاجة إلى شرح تاريخ الإرهاب الصهيونى فى فلسطين والحديث عن أجهزته وأساليبه ومصادر قوى الشرفية . الذى انتشر فى هذه البلاد الآمنة الوادعة خلال الحرب العالمية الثانية وامتدت آثاره إلى خارجها كما هو معلوم .

لكننا نقتصر على القول بأنه عندما أعلن قرار التقسيم الجائر فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ كانت الصهيونية فى فلسطين قد أعدت عدتها من قبل لاقتراف جريمتها الكبرى التى ترمى إلى تشريد العرب من ديارهم بوسائل الترويع ، والتنكيل ، والبطش ، واستباحة الأنفس والأموال ، فى حين لم يكن العرب يملكون أبسط أسباب الدفاع عن النفس .

وتحول الإرهابيون من الفتك بالإنجليز إلى الفتك بالعرب فشنوا عليهم حملة إرهابية واسعة النطاق . وأخذوا يضربون هنا وهناك ، ويفجرون القنابل الناسفة فى البيوت والفنادق والأسواق ، وكان غرضهم إشاعة الرعب والفزع فى قلوب الأهالى المدنيين وإرغامهم على ترك دورهم وديارهم .

وهكذا انقضت عصابات البطش والإجرام الصهيونية على

المواطنين العرب أثر قرار التقسيم . وخرج الصهيونيون بوحداتهم المسلحة والانتداب البريطانى لم يزل قائماً فبدأت الاصطدامات الدامية فى شوارع القدس منذ شهر ديسمبر ١٩٤٧ وشرعت موجة الإرهاب الصهيونى تقتحم على العرب العزل بيوتهم ومساكنهم فى المدن والقرى .

ولم يحل عام ١٩٤٨ حتى كان العدوان الصهيونى قد انتشر فى طول البلاد وعرضها حاملا معه الذعر والترويع فى جميع الأوساط والمناطق .

ووقعت سلسلة آثمة من الاعتداءات الإجرامية نذكر منها على سبيل المثال حادث نسف فندق سميراميس بالقدس فى ليل ٥ يناير ١٩٤٨ . وقتل فى هذا الحادث أسرتان عربيتان بكاملهما وممثل أسبانيا الدبلوماسى وحوالى ٢٠ شخصاً آخرين من نزلاء الفندق الأبرياء كانوا غارقين فى النوم .

وفى يافا نسفت دار الخدمة الاجتماعية وراح ضحية هذا الاعتداء حوالى مائة عربى وتعرض السكان العرب لحوادث إجرامية فظيعة ولمذابح مروعة فى أنحاء كثيرة من فلسطين كالعباسية وناصر الدين وطبريا وعين الزيتون ودير يسن وحواله وبلد الشيخ وعيلوط وغيرها .

واستخدم الإرهاب اليهودى فى أقسى الوسائل وأشنعها فى ضرب القرى العربية الآمنة العزلاء بالقنابل المدمرة والمحرقة وبث الألغام على طول طرق المواصلات والجسور والسكك الحديدية وفى الأحياء العربية والأسواق حيث أمكنة التجمع العامة . وأصبح موت أسر بريئة بأكملها من نساء ورجال وأطفال تحت أنقاض بيوتهم حادثا عاديا .

وبهذا الأسلوب وفى ظل الإرهاب الصهيونى تمكن اليهود فى بضعة أشهر من إجلاء مئات الألاوف من العرب العزل ممن عجزت الصهيونية عن إجلائهم فى ثلاثين عاما .

وهكذا بدأ العرب الآمنين المسالمين ينزحون عن بيوتهم فى المدن التى يخالطون فيها اليهود ، ثم راحوا يغادرون القرى المجاورة لمناطق احتشاد العدو تاركين وراءهم أموالهم وممتلكاتهم والعدد العديد من الضحايا والشهداء .

وعلى هذه الصور وخلال الأشهر الأربعة الأولى من عام ١٩٤٨ إذ كان الانتداب البريطانى لا يزال قائماً ، وإذ كانت القرى العربية النظامية لا زالت كلها فى ثكناتها ومراكزها خارج حدود فلسطين خرجت القوافل الأولى من اللاجئين الفلسطينيين وبلغ

عددهم حوالى ٣٥٠,٠٠٠ شخص جرى كل هذا ولا أثر لحالة الحرب الرسمية التى يحتج بها اليهود فى البلاد فيما بعد !!

وهكذا أصبح عدة مدن عربية من عشرات القرى خالية من أهلها ونهبا للإرهابيين والمجرمين . كل ذلك قبيل يوم ١٥ مايو (آيار) سنة ١٩٤٨ الذى دخلت فيه الجيوش العربية فلسطين مدافعة عن أهلها المشردين . لا معتدية ولا غازية كما يزعم اليهود .

وقد جاء فى تقرير الكونت فولك برنادوت وسيط الأمم المتحدة، الذى وضعه فى عام ١٩٤٨ أنه « عندما انتهى أجل الانتداب البريطانى رسميا فى ١٥ مايو ١٩٤٨ كانت حكومة إسرائيل المؤقتة التى سبق إعلان قيامها فى ١٩٤٨/٥/١٤ تشرف على أهم أجزاء الأقاليم التى خصصها قرار الجمعية العامة للدولة اليهودية » .

ومضت فترة القتال الرسمى التى لم تتجاوز إلا الثلاثة أسابيع كما هو معلوم . وجاءت فترة الهدنة الأولى ، ولم يخرج خلالها من اللاجئين سوى عدد قليل لا يبلغ ١٠ ٪ من مجموعهم العام . وفى هذا أكبر دليل على أن حالة الحرب الرسمية التى دارت بين القرى العربية واليهود لم تكن السبب فى خروج اللاجئين من ديارهم كما تزعم الدعاية الصهيونية.

ثم عاود اليهود عدوانهم فى الفترة ما بين الهدنتين وعقب قرار

وقف إطلاق النار واشتدت موجة الإرهاب وانتشرت فى سائر أنحاء البلاد ، مما اضطر أهل فلسطين إلى النزوح فى حالة من الذعر وتحت وابل من رصاص البنادق والمدافع والطائرات .

كل هذه الحقائق تكشف النقاب عن المسئولين مسئولية واضحة ثابتة، عن هذه المأساة. وإن كانت الدعاية اليهودية المضللة تذهب مذاهب شتى فى التنصل من المسئولية ، وتدعى البراءة والطهر منها . وتحاول الظهور بمظهر الضعيف المجنى عليه . مستجدية عطف الرأى العام الذى الذى لولا تخايلها على اكتسابه لما استطاعت أن تجد لباطلها نصيرا ولا لعدوانها مؤيدا ، ولا لكيانها المتداعى والذى يخالف كل عرف قانونى أو شرعى حاميا ومجيرا .

وأشار الكونت برنادوت فى تقريره إلى أن الفزع والدمار هما اللذان انتزعا اللاجئين العرب من ديارهم .

وجاء هذا التقرير أيضاً أنه يلفت النظر من مصادر موثوق بها إلى أعمال نهب وسلب وقطع طريق . وقد أبلغ من مصادر مطلعة عن كثير من أعمال ارتكبت على نطاق واسع ، وإلى حوادث تدمير قرى من غير مبرر عسكرى ظاهر . ولا شك أن حكومة إسرائيل المؤقتة المسئولة عن إعادة الممتلكات الخاصة إلى أصحابها العرب وتعويضهم عن فقد الممتلكات التى دمرت بلا مبرر » .

وأورد الوسيط فى تقريره أنه : « عقب النزاع الذى قام فى فلسطين فرأو أبعاد عن الاقليم الذى يحتله اليهود أغلب السكان العرب بما فيهم السكان العرب العديدون بمدن يافا وحيفا وعكا والرملة واللد . وبعد أن كان عدد السكان العرى يزد قليلا عن ٤٠٠ ألف قبل بدء القتال أصبح عدد الباقين منهم الآن فى الأراضى الخاضعة لرقابة اليهود خمسين ألفا تقريباً » .

وجاء فى هذا التقرير « أنه أجرى تحقيق تمهيدى سريع فى المنطقة التى يحتلها العرب فى فلسطين عن الحالة الاجتماعية . وتم فى ٧ أغسطس ١٩٤٨ وكانت النتيجة أن ١٢ ٪ من اللاجئين يتكونون من أطفال (من الولادة إلى سنتين و ١٨ ٪ من أطفال بين ٣ إلى ٥ سنوات و ٣٦ ٪ من الأشخاص بين ٦ و ١٨ ٪ سنة وأكثر من ١٠ ٪ من هؤلاء السكان مكون من نساء حوامل وأمهات مرضعات . ويضاف إلى هذا العدد ٨ ٪ تقريباً من الشيوخ والمرضى والعجزة وهذا يمثل مجموعا يبلغ ٨٥ ٪ تقريباً .

ولا نزاع فى أن رفض ستمائة وخمسين ألف يهودى كانوا دخلاء على البلاد من أن يشتركوا مع المليون وربع المليون عربى ، وهم أهل البلاد الأصليين ، لتأليف حكومة تتمشى على نظم ديموقراطية بنسبة العدد كما هى الحال فى جميع بلاد العالم ،

وإصرارهم على أن يكون لهم دولة منفردة مستقلة فى فلسطين هو فى حد ذاته تنفيذ للمؤامرة المبيتة .

كما أنه لا نزاع فى أن تجريد العرب من السلاح وتسليح اليهود منذ أمد بعيد وتنظيم عصابات إرهابية من بينهم مزودة بأشد الأسلحة فتكا ، وأن ما ارتكبه الصهيونيون فى فلسطين من أعمال الإرهاب الشائنة التى تتجاوز نطاق العقل ، وسلسلة الاعتداءات . وحوادث القتل والاغتيال الجماعى التى كانت وما برحت وسائل الصهيونيين فى تحقيق أهدافهم العدوانية فى فلسطين كان للفتك بالأهالى العرب العزل من السلاح وتشريدهم عن ديارهم واغتصاب أملاكهم وأموالهم واحتلال بلادهم خالية من السكان .

كما أنه لا نزاع فى أن قضية اللاجئين مسألة سياسية واجتماعية وإنسانية على جانب عظيم من الخطورة . وأن ما يقرب من المليون من المدنيين العرب أقصوا عن وطنهم تحت تأثير الذعر والإرهاب الصهيونى ، وطردوا من ديارهم وأراضيهم وسلبت ممتلكاتهم أصبحوا يعيشون اليوم مشتتين كلاجئين . وأضحى عدد كبير منهم بلا طعام ولا مأوى ولا لباس ولا غطاء ، بينما ترك بعضهم مهدداً تهديداً خطيراً بالمجاعة والمرض . ولاقى آخرون حتفهم بلا رحمة .

وجاء فى تقرير وسيط الأمم المتحدة الكونت فولك برنادوث الذى ناقشته جمعيتها العامة فى دورتها الثالثة عام ١٩٤٨ ما يلى .

بلغ الموقف مرحلة دقيقة بسبب أن الرملة واللد اللتين فر إليهما آلاف عديدة من السكان القادمين من يافا ومناطق أخرى قد سقطت أيضاً قبل الهدنة الثانية مباشرة ١٩٤٨/٧/١٨ . وفضلاً عن ذلك فإذا كان هؤلاء الذين فروا فى الأيام الأولى للقتال استطاعوا أن يحملوا معهم بعض المتاع والمتعلقات الشخصية فإن عدداً كبيراً من هؤلاء الذين قدموا فيما بعد لم يكن معهم أن شىء ما عدا الملابس التى كانوا يرتدونها بعد أن حرموا من مساكنهم (وكثيراً منها دمر) وفقدوا جميع أمتعتهم حتى الأدوات التى يمارسون بها مهمتهم .

وجاء فى مقال المؤرخ البريطانى آرنولد توينى ، السابق الإشارة إليه ما يلى[1] : «إنى أرى القصة كمأساة ولا أرى المأساة ابتدأت بنشوب القتال فى إبريل ١٩٤٨ أن كثير من المسئوليات الناتجة عن أعمال الصهيونيين فى فلسطين والفلسطينيين العرب فى سنة ١٩٤٨ تقع كما أعتقد وكما سبق لى أن قلت على بريطانيا

(١) للمؤرخ البريطانى ارنولد توينبى دراسة تفصيلية عن رأيه فى مأساة اللاجئين الفلسطينيين يراها القارئ فى الفصل الرابع .

العظمى . كما أنى أعتقد فيما يتعلق بالمشكلة القائمة بين الفلسطينيين العرب والصهيونيين أن الفلسطينيين العرب على صواب وأن الصهيونيين على خطأ » .

وأضاف قائلاً « أن المأساة كما أراها ترجع إلى ما قبل صدور وعد بلفور بكثير » واستطرد قائلاً : « أنه من المحزن حقاً أن تكون مجرماً بالتعصب أو أن تكون ضحية له . وقد كان اليهود على التعاقب مجرمين به وضحايا له منذ القرن الثانى قبل الميلاد وأن السخرية الأكيدة التى تستخرج من التاريخ اليهودى هى أن اليهود كانوا أول المتألمين من الروح الذى كانوا هم أول من أشعل نيرانه » .

« وأن مأساة التاريخ اليهودى الحديث هى أنها بدلا من أن يتعلم اليهود من مصائبهم وآلامهم قد صنعوا بغيرهم العرب ما صنعه الآخرون بهم أى النازيون » .

إلى أن قال « وإنى أشعر بأن مأساة جرائم إسرائيل والصهيونية أعظم شأنًا من مأساة جرائم ألمانيا النازية » .

« أن مقياس المأساة ليس إحصائياً بل روحياً وأن إجمالى الألمان حين اقترفوا ما اقترفوا من آثام ضد اليهود لم تكن لديهم خبرة هؤلاء الواسعة فى تجاربهم » .